ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 06، العدد: 01 (2021) ص: 81 – 90

المدرسة البغدادية في النحو ودورها في إرساء وبعث قواعد العربية

The Baghdad school of grammar and its role in establishing and resurrecting Arabic grammar

أ.د. أحمد جعفري

الجامعة الإفريقية أحمد دراية أدرار– الجزائر –

adjaafri@univ-adrar.edu.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
11 أوت 2020
تاريخ القبول:
29 نوفمبر 2020

الكلمات المفتاحية :
- ✓ النحو، مدرسة بغدادية
- ✓ البصرة، الكوفة
- ✓ النحاة

الملخص:

انطلاقا من أهمية المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي أولا، وحرصا منا على الوقوف أمام نتاج البغداديين تحديدا، جاءت فكرة حديثنا عن هذه المدرسة وما خطه أعلامها الأفزاز في مفكرة النحو العربي على أمل الوصول إلى جزء من مجموع التقاطعات المعرفية التي مستها المدرسة عبر تاريخها الطويل.

Article info

Received
11/08/2020
Accepted
29/11/2020

Keywords:
- ✓ *Grammar, Basra*
- ✓ *Baghdad school, Kufa*
- ✓ *grammarians*

Abstract :

Based on the importance of the Baghdad school in the history of Arabic grammar first, and in the interest of us to stand in front of the product of the Baghdadi in particular, the idea of our conversation about this school and what its flags have written came in the notebook of Arabic grammar in the hope of reaching a part of the set of cognitive intersections that the school has touched throughout its long history.

مقدمة

تعتبر المدرسة البغدادية في النحو العربي ثالث الثلاثة من المدارس التي تصدرت حركة النحو العربي في بداية نشأته، إذ أنه وبعد انقسام النحاة في مواقفهم ومصادر استشهادهم بين ما عرف تاريخيا بالمدرسة البصرية والمدرسة الكوفية، وبعد النزاع الفكري الذي غلب على العديد من مسائل ومناهج المدرستين ظهر جيل جديد من العلماء في القرن الرابع الهجري من أمثال: عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت 337 ه)، (ابن النديم 1997ص 107)، وأبو علي الفارسي (377ه) (ينظر التعليق رقم 01)، أبو الفتح عثمان ابن جني (392ه). (ينظر التعليق رقم 02)، والزمخشري أبو القاسم محمودبن عمر (538ه)، (السيوطي 1979. مج 2 ص 279) وغيرهم من العلماء. واتبع هؤلاء العلماء نهجاً جديداً في دراساتهم ومصنفاتهم النحوية، يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعاً، وكان من أهم ما هيأ لهذا الاتجاه الجديد أن أوائل هؤلاء النحاة تتلمذوا للمبرد وثعلب، وبذلك نشأ جيل من النحاة يحمل آراء مدرستيهما، ويعنى بالتعمق في مصنفات أصحابهما، والنفوذ من خلال ذلك إلى كثير من الآراء النحوية الجديدة.

ومع أن المدرسة البغدادية قد أخذت من البداية موقع الوسطية بين المدرستين البصرية والكوفية، وهو ما مكنهم من الانتفاع بعلم البصريين وعلمالكوفيين في وقت معا، إلى أن علماء هذه المدرسة لم يقفوا عند هذا الحد الفاصل بين المدرستين، بل راحوا يدافعون عن آرائهم ومواقفهم الخلافية في كثير من المسائل، وسجلوا في ذلك عديد النقاط التي ميزت مدرستهم عن المدرستين السابقتين.

ومن المسلمات تاريخيا في هذا الباب أن غريبة اللحن التي دخلت البيوت العربية وتوسعت رقعتها الزمكانية في وقت قياسي، قد دفعت دفعا إلى جمع اللغةِ العربية وتدوينها، كما كانت السبب المباشر وراء استنباط قواعد النحو وتصنيفها. ذلك أن ظهور اللحن وتفشيه في الكلام، وزحفه إلى لسان من يتلوالقرآن، هو الباعث على تدوين اللغة، واستنباط قواعد النحو منها (سعيد الأفغاني ص 8).

وجدير بالذكر هنا أن نقول أن بداية اللحن وفساد الألسن قد بدأ مبكرا منعهد النبي (ص) (سعيد الأفغاني. ص 8) فقد روي أَن أحد الناس قرأ، فلحن في حضرته عليه السلام- فقال "أرشدوا أخاكم"(النيسابوري 1990ج 2 ص39). وشيئا فشيئا بدأ اللحن في الانتشار، ولم تسلم منه حتى بيوت علماء العربية أنفسهم، فهذا أبو الأسود الدؤلي يدخل على ابنته في موسم حر فتبادره بالقول: "يا أبت ما أَشَدُّ الحَرِّ (الإصفهاني 1992 ج 2 ص 298) برفعها كلمة أشدُّ .فظنها تستفهم عن أي زمان الحر هو الأشد؟ فقال: "شهر ناجر "فقالت: "يا أبت إنما أخبرتك، ولم أسألك"، فأتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالبٍ – عليه السلام – فقال: "يا أمير المؤمنين، ذهبت لغة العرب، لما خالطت العجم، وأوشك – إن تطاول عليها زمان – أن تضمحل"، فقال له: "وما ذلك؟"، فأخبره خبر ابنته، فأمره، فاشترى صحفا بدرهم، وأملّ عليه: "الكلام كله لايخرج عن اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى" (الإصفهاني 1992 ج 2 ص 298).

في هذه الظروف جميعها كانت بلاد العراق موطنا ومنطلقا لكثير من العلوم العربية إن لم نقل كلها، وهذا بحكم خبرتهم المتوارثة، وعهدها القديم بالعلوم والتأليف، يضاف إلى كل هذا ما وفرته البلدة من متطلبات الحياة المختلفة قبل وبعد الفتح الإسلامي للعرب وللعجم معا، وهو ما جعلها من جهة أخرى أكثر عرضة من غيرها لخطر اللحن وفساد الألسن.

وفي الداخل العراقي كان لمدن البصرة والكوفة وبغداد على التوالي القسط الأوفر في هذا النشاط، وذاك بحكم موقع وأهمية كل واحدة من هذه الثلاثة، وبخاصة مدينة البصرة التي كانت تقع على أطراف البادية قريبا من المنهل العربي الصافي من جهة، وبعيدا عن التأثير الأجنبي من جهة أخرى، يضاف إلى كل هذا وذاك قربها من سوق المربد الشهير، وهو مجمع الأعراب على اختلاف مشاربهم، و هو ما شكل فرصة التلاقي والتلاقح لمجمل البصريين مع أعراب البادية، وكانت البصرة بذلك حاضنة النحو الأولى لما يزيد عن قرن من الزمان قبل أن ينتقل إلى الكوفة التي كانت بدورها أسبق من بغداد. وفي المقابل لمدينة البصرة كانت الكوفة أبعد ما يكون عن الجزيرة العربية وأقرب ما يكون عن النفوذ الأجنبي، وهما نقطتا الفصل الرئيسية ومنطلقا لمجمل ما دار من خلاف بين النحاة.

ويكاد يجمع الدارسون(ينظرالتعليق رقم 03) القدامى على أن الجيل الأول من النحاة، وفي مقدمتهم أبو الأسود الدؤلي (69هـ) كانوا من السباقين الأوائل في هذا الباب وفي ذلك يقول ابن قتيبة(276هـ)في معرض حديثه عن أبي الأسود الدؤلي "... وهو يعد في الشعراء ، والتابعين... والنحويين لأنه أول من عمل في النحو كتابا" (ابن قتيبة .1964.ج02ص 09). ويذهب الزبيدي (379هـ) أبعد من ذلك تفصيلا للمسألة وتأصيلا لها حين يرى فيه أنه "هو أول من أسس العربية ونهج سبلها، ووضع قياسها، وذلك حين اضطرب كلام العرب وصار سراة الناس ووجوههم يلحنون. فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف وحروف النصب، والرفع، والجر."(الزبيدي .1954.ص 13).

وعلى هذا الرأي سار معظم الدارسين المحدثين في حديثهم عن المسألة، وفي مقدمتهم أحمد حسن الزيات، والدكتور شوقي ضيف وغيرهم. حيث يرى الأول أن أول واضع للنحو هو أبو الأسود الدؤلي (69 هـ)." (حسن الزيات .ص 416) بينما يرى الدكتور شوقي ضيف وبإجماع الروايات أن النسبة لم تخرج أيضا عن الرجل. فجميع الروايات – بحسب رأيه – تقف في الواضع الأول للنحو عند أبي الأسود غير أنها تعود فتضطرب في السبب الذي جعله يرسمه (شوقي ضيف 1992 ص 14). وعن أبي الأسود أخذ جملة من التلاميذ (عبد العالبي مكرم .1993.ص 74) في مقدمتهم نصر بن عاصم (89هـ)، وعبد الرحمن بن هرمز (117هـ)، ويحي بن يعمر (129هـ)، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن. ومع ما دار من نقاش حول هذه البداية فإن مفهوم النحو "لم يتجاوز حدود الاستقراء للسليقة والاحتذاء لعمل الإمام علي (ض) "(طلال علامة1992. ص 178).

وبعد هؤلاء جاء جيل آخر من علماء البصرة، وكان لهم فضل الريادة والرئاسة لما أصبح يعرف بالمدرسة البصرية، وفي مقدمتهم ابن أبي إسحاق الحضرمي (117هـ)، وتلميذه عيسى بن عمر (ت149هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (154هـ)، ويونس بن حبيب(182هـ).

ومع فضل الأسبقية لهؤلاء جميعا وغيرهم إلا أن المؤسس الحقيقي لمدرسة البصرة النحوية ولعلم النحو عامة كما يرى الدكتور شوقي ضيف (شوقي ضيف .ص 23) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ)، وإن لم يترك لنا في ذلك كتابا جامعا – كما قال – بل جاءت آراؤه الكثيرة مبثوثة في كتاب تلميذه سيبويه (180هـ) المعروف بين الدارسين ب"الكتاب" حتى قيل أن عامة الحكاية في هذا المصنف على كثرتها هي عن أستاذه الخليل (175هـ).

وبعد الخليل (175هـ) وآرائه وسيبويه (180هـ) وكتابه، جاء الدور على ثلة أخرى من تلاميذهم الذين واصلوا المسيرة وواكبوها بجملة من المؤلفات المتخصصة في هذا الباب نذكر منهم : قطرب (206) بكتابيه "العلل في النحو" و"الاشتقاق"، والأخفش الأوسط (211هـ) بكتابه "المسائل"، وأبو عمر الجرمي (225هـ) بكتابيه"المختصر" و "الأبنية". والمازني (249هـ) بكتابه"ما ينصرف وما لا ينصرف" والمبرد (285هـ) بكتاب"المقتضب"، وابن السراج (316هـ) بكتابه"الأصول"، وصولا إلى السيرفي (368هـ) الذي تعدى التأليف في النحو إلى التأليف في أخبار النحاة البصريين.

وفي الوقت الذي وصلت فيه البصرة ما وصلت في هذا الباب كانت الكوفة مشغولة بقراءات الذكر الحكيم، ورواياته الرواية الدقيقة، إلى جانب انشغالها بالفقه، ووضع أصوله وفتاواه مما جعلها تحظى بمذهب فقهي هومذهب أبي حنيفة وبثلاثة من القراء السبعة الذين شاعت قراءاتهم في العالم العربي وهم عاصم (128هـ) (الفهرست ص 145) وحمزة (156هـ) (الفهرست ص146) والكسائي (179 هـ) (الفهرست ص147)، وعنيت إلى جانب ذلك عناية واسعة برواية الشعر والأخبار (شوقي ضيف. ص. 153) إلى أن جاء الكسائي (189 هـ) مع بداية النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة الذي استطاع هو وتلميذه الفراء (207هـ) أن يستحدثا فيها مدرسة نحوية لها من الخصوصية ما يميزها من حيث الاتساع في الرواية، وبسط القياس وقبضه، ووضع بعض المصطلحات الجديدة، والتوسع في تخطئة بعض العرب، وإنكار بعض القراءات الشاذة وغير ذلك.

وفي هذا المجال أيضا برزت الجهود الكوفية في مؤلفات مستقلة تضمنت الكثير من آرائهم وتعاليقهم على بعض المسائل الخلافية مع نظرائهم من علماء البصرة، حيث ألف الكسائي (179هـ) كتبه الثلاثة المشهورة: "مختصر النحو" ،"الحدود في النحو"، "ما تلحن فيه العوام". وبعده ألف تلميذه الفراء (207هـ) كتابه "لغات القرآن". ثم بعدهما هشام بن معاوية الضرير (209هـ) بكتبه الثلاثة المشهورة: "الحدود"، " المختصر"، " القياس". ثم يأتي بعده ثعلب (291هـ) بكتابه المشهور "المجالس" فابن الأنبا ري (328هـ) بكتابيه "الأضداد"، وكتاب "الموضح في النحو".

ولعل من أهم مواطن الاختلاف (شوقي ضيف.ص 153) بين المدرستين بشكل عام كان في نظرة كل فريق إلى أمر الرواية والقياس أساسا إضافة إلى اختلافهما في بعضالمصطلحات النحوية وما يتصل بها من العوامل.

وفي الجانب الأول المتعلق بأمر الرواية نجد أن البصريين قد تشددوا فيها أيما تشديد، ولم يأخذوا إلا عن الفصحاء من سكان البوادي، على خلاف أهل الكوفة الذين وسعوا في مجال الرواية وأخذوا عن جميع العرب بدويهم وحضريهم. أما في عنصر القياس فإن البصريين اشترطوا فيشواهد القياس أن تكون جارية على ألسنة العرب الفصحاء وأن تكون كثيرة، وهو ما جعلهم يرفضون ماشذ على قواعدهم ومقاييسهم،وهذا بخلاف الكوفيين أيضا الذين اعتدوا بأقوال وأشعار المتحضرين من العرب، كما اعتدوا بالأقوال والأشعار الشاذة مماخرج على قواعد البصريين. وانطلاقا من هذين العنصرين أساسا إضافة إلى بعضالمصطلحات النحوية وما يتصل بها من العوامل عند الفريقين. تشكلت معظم خيوط الخلاف بين المدرستين وقد أفرد لذلك الأنباري كتابا خاصا سماه " الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين" (ينظر التعليق رقم 04) وعرض فيه لإحدى وعشرين ومائة مسألة خلافية بين الفريقين. وإلى هذا كله "ينبغي أن

يستقر في الأذهان أن المدرسة الكوفية لا تباين البصرية في الأركان العامة للنحو، فقد بنت نحوها على ما أحكمته البصرة من تلك الأركان، التي ظلت إلى اليوم راسخة في النحو العربي، غير أنها مع اعتمادها لتلك الأركان استطاعت أن تشق لنفسها مذهبا نحويا جديدا، له طوابعه وله أسسهومبادئه." (شوقي ضيف .ص 153).

وبعد المدرستين البصرية والكوفية وما دار بينهما من نقاش في كثير من المسائل النحوية، جاءت المدرسة البغدادية لتقف وسطا بين الفريقين، ذلك أنه وبعد تأسيس مدينة بغداد أصبحت موطنا رئيسيا لكسب الرزق وإدارة الأعمال، ووجهة الخلافة الجديدة واتصل بموجب ذلك كثير من العلماء البصريين والكوفيين على السواء ببيت الخلافة، وتولوا شؤون تعليم أبناء الخلفاء حيث كان الكسائي رئيس مدرسة الكوفة معلم ابني الرشيد الأمين والمأمون، وانتقل الأمر إلى تلميذه الفراء الذي تكفل بتربية أولاد المأمون، وإلى تلميذ تلميذه ابن السكيت من بعده الذي تولى هو الآخر رعاية وتربية أبناء المتوكل.

وفي هذه الأثناء أيضا شهدت بغداد نشاطا علميا حيا في حلقتي إمامي المدرستين البصرية والكوفية حينها ونعني بهما محمد بن يزيد المبرد (285هـ)، وأبو العباس أحمد بن يحي ثعلب (291هـ) حيث كان الصراع بينهما على أشده وهو ما "جعل الدارسون يقبلون عليهما كليهما، ويأخذون عنهما معا ثم يتخيرون من هذا ومن ذاك ما يراه كل واحد مناسبا لتفكيره واتجاهه "(عبده الراجحي. 1980. ص 159).

وبمثل تلك اللقاءات المتكررة والاحتكاك المباشر بين أقطاب المدرستين تمكن الفريقان من عرض أراء مذهبيهما ومناقشتها "وكان من هذا الجيل منْ يغلب عليه الميل إلى الآراء الكوفية، ومن يغلب عليه الميل إلى الآراء البصرية" (شوقي ضيف. ص 245). ومن رأي الفريقين معا البصري والكوفي نشأ رأي ثالث يمثل مدينة بغداد التي كانت ساحة له "وما كاد القرن الرابع يبدأ حتى أخذت مدرسة بغداد تتميز بمنهجها الخاص" (عبده الراجحي. 1980. ص 159).

ولقد اختلفت نظرة النقاد والدارسين المحدثين خصوصا لهذا الاتجاه بين مؤيد لهذا التفرد وبين متحفظ (ينظر التعليق رقم 05) على إطلاق التسمية في حد ذاتها، غير أن الأمر في عمومه لا يعدوا أن يكون اختلاف في بعض وجهات النظر حول أعلام هذه المدرسة وكذا بعض أسسها المنهجية، وهذا بخلاف عموم الباحثين والدارسين (ينظر التعليق رقم 06) الذين أقروا بوجود هذه المدرسة ككيان قائم ومستقل بذاته، بل إنهم اتفقوا أيضا على وجود مدارس أخرى جاءت بعدها كالمدرسة الأندلسية، والمدرسة البصرية وغير ذلك.

وبالرجوع إلى أصل نشأة المدرسة وتاريخ أعلامها، فإننا لا نجد اتفاقا نهائيا بين الدارسين عند أصل التأسيس، ومرجعية المؤسس الأول، إذ أننا في الوقت الذي نجد فيه بعض الدراسات (ينظر التعليق رقم 07) تقف بمنشأ هذه المدرسة عند العالم ابن كيسان (299هـ) (ينظر التعليق رقم 08) الذي تتلمذا على المبرد وثعلب، وكان شاهدا على خلاف البصريين والكوفيين، وكتب في ذلك كتابا سماه: اختلاف البصريين والكوفيين. فإننا نجد بالمقابل ياقوت الحموي ينسب الرجل نفسه إلى المدرسة البصرية حيث يصفه بالقول: "إنه كان متبحراً في مذهب البصريين" (ياقوت الحموي. ج5. ص 120).

وإلى هذا كله فقد ذهب البعض الآخر إلى أبعد من هذا وذاك حين رجع بالجذور الأولى لهذه المدرسة إلى نهاية القرن الثاني الهجري مع ما وقع لسيبويه في بغداد حيث حاول تلميذه الأخفش سعيد بن مسعدة (211هـ) الثأر له في بغداد، حيث يقول الدكتور محمود حسني محمود في كتابه الذي خصه لهذه المدرسة: "الأخفش بغدادي، يزرع هذه البذرة لما عاد سيبويه من بغداد، وعلم الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة خبره عزم على أن يثأر له، فذهب متحمساً إلى بغداد" (محمود حسني. ص 75). ونرى شوقي ضيف هو الآخر يلمح إلى هذا أيضا حين يعتبر أن الرجل "هو الذي أعد لتنشأ فيما بعد مدرسة الكوفة ثم المدارس المتأخرة المختلفة" (شوقي ضيف. ص 95). بينما ذهب ابن النديم (ابن النديم. ص 347) إلى القول بأن أول من خلط بين المذهبين البصري والكوفي هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (270هـ).

وبعيدا عن هؤلاء الأعلام الثلاثة الأوائل، فقد نسبت للمدرسة البغدادية (شوقي ضيف. ص 245) عديد الأسماء النحوية الأخرى، غير أنها لم تسلم هي الأخرى من باب المزايدة في نسبتها لهذه المدرسة أو تلك ومن بين هذه الأسماء نذكر تمثيلا لا حصرا: (شوقي ضيف. ص 245):

01/ عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت 337هـ)، أخذ عن الزجاج البصري وسمي باسمه، له مصنفات لغوية عديدة منها: الإيضاح في علل النحو،كتاب الجمل،كتاب مجالس العلماء .توفي في طبرية سنة (ت 337هـ).

02/ أبو علي الفارسي (377هـ): هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي، ولد سنة (288) هـ، وأخذ عن ابن السراج. كانت بينه وبين المتنبي مجالس، وصحب عضد الدولة ابن بويه، وصنف له كتاب الإيضاح . توفي يوم الأحد لسبع عشرة (17) ليلة خلت من شهر ربيع الآخر، وقيل ربيع الأول سنة (377)هـ، ودفن ببغداد من كتبه أيضا: العوامل المائة، التكملة، الحجة في القراءات السبع،كتاب التذكرة، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب الإغفال فيما أغفله الزجاج من المعاني، إضافة إلى جملة من كتب المسائل منها: كتاب المسائل الحلبيات، وكتاب المسائل البغداديات، وكتاب المسائل الشيرازيات، وكتاب المسائل العسكرية، وكتاب المسائل البصرية وغير ذلك.

03/ أبو الفتح عثمان ابن جني النحوي (392هـ)، ولد قبل (330 هـ)، بمدينة الموصل، وفيها قضى طفولته وتلقى دروسه الأولى، ثم انتقل إلى بغداد بصحبة أستاذه أبي علي الفارسي، وأخذ عن شيوخ آخرين منهم الثمانيني، وعبد السلام البصري وغيرهم. وبعد وفاة شيخه أبي علي الفارسي خلفه ابن جني في مجلسه ببغداد، إلى أن وافته المنية ليلة الجمعة من صفر عام (392هـ). له ما يزيد عن الأربعين مؤلفاً منها: الخصائص، التصريف الملوكي، سر الصناعة، شرح تصريف المازني، شرح المقصور والممدود لابن السكيت، تعاقب العربية، تفسير ديوان المتنبي الكبير، تفسير معاني ديوان المتنبي، وهو شرح ديوان المتنبي الصغير، اللمع في العربية، مختصر التصريف المشهور بالتصريف الملوكي، مختصر العروض والقوافي، الألفاظ المهموزة.

04/ الزمخشري أبو القاسم محمودبن عمر (538هـ): ولد في مدينة زمخشر في رجب سنة (467هـ)، وعرف منذ صباه بشدة ذكائه، وقوة ذاكرته. ظل مترددا على بغداد المرة تلو الأخرى، واتصل بالعديد من علمائها من أمثال: النيسابوري بن المظفر، وأبومضر محمود بن

جرير الضبي الأصبهاني. وأبو سعيد الشقاني وغيرهم .من كتبه :الكشاف في تفسير القرآن الكريم، وكتاب أساس البلاغة، والنموذج، وكتاب المفصل، وكتاب الرائض في علم الفرائض وغير ذلك.

وغير هؤلاء الأعلام فقد نسب (شوقي ضيف. ص 276) إلى هذه المدرسة العديد من العلماء المتأخرين الذين خلطوا بين المذهبين أساسا وقد جمعتهم في ذلك نقاط تلاق كثيرة مع علماء هذه المدرسة نذكر من ذلك: ابن الشجري (ت 542هـ)، والأنبا ري، وأبو البقاء العكبري، وابن يعيش (643هـ)، بن الحاجب (ت 646هـ) والإستراباذي (نحو 686هـ) وغيرهم.

وإذا انتقلنا مع أعلام هذه المدرسة إلى أهم الخصائص التي طبعت المدرسة وميزتها عن بقية المدارس فإننا نجد في مقدمة كل ذلك التوسع في عملية الاحتجاج ذلك أن علماء المدرسة البغدادية لم يقفوا بحدود الاحتجاج عند سقف الشاعر ابنهرمة القرشي (ت 176هـ)، بل تعدوه إلى كثير من الشعراء الذين جاءوا بعده مثلما الشأن مع أبي علي الفارسي (377هـ) الذي استشهد في كتبه بشعر أبي تمام (ت 232هـ) والمتنبي (ت 354هـ) والبحتري، ومثله ابن جني (392هـ) الذي احتج في كتبه بشعر أبي نواس (199هـ) والمتنبي (ت 354هـ). والاستراباذي (ينظر التعليق رقم :09) الذي احتج هو الآخر بشعر العديد من المولدين.

ولم يكن جديد علماء بغداد على مستوى الاحتجاج بالشعر فحسب، بل تعدوه إلى قبول الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف وهذا ما نراه في كتب أبي علي الفارسي (377هـ)، وابن جني (ت 392هـ)، والزمخشري (ت538هـ)، والاستراباذي خاصة (ت 688 هـ) (ينظر التعليق رقم 10).

ولم يكن خلاف البغداديين مع نظرائهم من أهل البصرة والكوفة متوقفا عند حدود الاحتجاج والشواهد فحسب بل تعدى ذلك إلى بعض المسائل الموضوعاتية المتخصصة في النحو وقد عدد بعضا منها الدكتور محمد قاسم) (ينظر التعليق رقم 11). في مقاله المعنون: الدرس النحوي في بغداد أم مدرسة بغداد النحوية؟ . ومن جملة ما ذكر(قاسم محمد .1996.ص87) :

01/ قضية تذكير العدد وتأنيثه:حيث اعتبر المتقدمون أن العبرة في التذكير والتأنيث بالمفرد لا الجمع. يقال: ثلاثة سجلات وثلاثة دُنينرات. ولكن السيوطي في كتابه همع الهوامع يذكر للبغداديين رأياً جديداً مخالفاً ذلك أنهم يعتبرون لفظ الجمع فيقولون: ثلاث سجلات، وثلاث حماماتبغير هاء، وإن كان الواحد مذكراً.

02/ إعمالهم للمصدر المعرف بـ (أل):كإعماله منوناً مع الاختلاف في العامل.

03/ عدهم (وَنَى) فعلاً ناقصاً:وهذا لأن معناها ما زال، نحو: ما ونى زيد قائماً.

04/ عدهم (ويحه)، (ويله) (ويسه) مفاعيل مطلقة: وهي عندهم منصوبة بأفعال منلفظها.

05/ مجيء (ليس) للعطف الذي يقتضي الاشتراك في اللفظ دون المعنى.

وإلى هذا كله فقد عدد الدكتور محمد قاسم (قاسم محمد. 1996.ص 88) لبعض أعلام هذه المدرسة العديد من الإضافات والآراء الخاصة التي تضمنها مؤلفات الزجاجي (ت 337هـ) وأبي علي الفارسي (377هـ)، وابن جني (392هـ)، وغيرهم.

الخاتمة

وفي الختام يمكن القول أن غريبة اللحن التي دخلت البيوت العربية، وتوسعت رقعتها الزمكانية في وقت قياسي جدا، وما أعقبها من خوف شديد على ولوجهها الألسن القرآنية، قد كان سببا مباشرا وراء جمع وتدوين اللغة العربية واستنباط قواعد النحو، وفي كل ذلك تبوأت بلاد العراق مقام السبق والريادة بمدنها التاريخية الشهيرة البصرة ثم الكوفة وأخيرا بغداد. وهذا بحكم خبرة العراقيين المتوارثة، و عهدهم القديم بالعلوم والتأليف، يضاف إلى كل هذا وذاك ما وفرته هذه البيئة من متطلبات الحياة المختلفة قبل وبعد الفتح الإسلامي للعرب وللعجم معا.

وإذا كان بناء المدرسة الكوفية في النحو قد قام في مجمل أركانه على مباينة ومعارضة البناء البصري ومنافسته، فإن دعائم المدرسة البغدادية كما هو باتفاق الجميع قد قامت على أساس التوافق والجمع بين رأي المذهبين، وهو ما جعل النحاة يسمونها بالمدرسة المزدوجة أو المدرسة المختلطة. ولا ينبغي هنا أن نفهم بأن عنصر المزاوجة والاختلاط بين المذهبين الذي تبنته المدرسة البغدادية في نهجها قد حدّ من نشاط علماء هذا الفريق، وجعلهم تبعا لرأي الفريقين الأوليين في هذا الباب. بل على العكس من ذلك تماما فإن معظم أعلام هذه المدرسة قد شاركوا نظرائهم في المدرستين السابقتين بكثير من الآراء والمناقشات الخاصة المبثوثة في كتبهم، وهو ما استطاع أن يؤهلهم إلى الاعتراف بهذه المدرسة النحوية كثالث الثلاثة الذين أسسوا لتاريخ النحو العربي، وهذا بإجماع كثير من الباحثين والدارسين القدامى والمحدثين.

الهوامش والاحالات

1- تنظر ترجمته في: السيوطي،بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، 1399 هـ/1979م، دار الفكر بيروت لبنان. ج1 ، ص496، والفيروزبادي، البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، . تحقيق محمد المصري ، مطبعة جامعة دمشق سوريا.ص53 ، الحنبلي ،شذرات الذهب في أخبار من ذهب . تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة بيروت لبنان. ، ج3، ص88 ، والفهرست، ص290 ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق د: إحسان عباس ، 1972 م، دار الثقافة بيروت لبنان. ج6 ، ص80 وما بعدها.

2- ينظر ترجمته في :بغية الوعاة، ج2، ص132، والبلغة، ص137، وشذرات الذهب، ج3 ، ص140 ، والفهرست ، ص397، ووفيات الأعيان ، ج3 ،ص 246.

3- لقد أحصى الدكتور طلال علامة سبع عشرة رواية في هذا المجال وهي بالمتأخر منها والمتقدم تعيد الأمر إلى الدؤلي كواضع هذا العلم .ينظر : طلال علامة، نشأة النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة .دار الفكر اللبناني ،بيروت لبنان ، ط1 1992م . ص 81.

4- الكتاب حققه أولا محمد محي الدين عبد الحميد وطبع سنة 1997م في المكتبة العصرية في بيروت ، ثم قام الدكتور حسن محمد وإشراف الدكتور إميل بديع يعقوب بإعادة تحقيقه .وطبع في دار الكتب العلمية بلبنان سنة 1998م.

5- ينظر الزبيدي، محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين (1973) محمدأبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ص 17 18،وابن النديم، كتاب الفهرست (1971) تح رضا- تجده ص 45 71 85. 89 والمخزومي مهدي ، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة، دار الرائد العربي، بيروت- لبنان- ط3- 1406هـ- 1986م- ص 70. والأفغاني، سعيد، من تاريخ النحو ص 4.

6- ينظر :أمين، أحمد، ظهر الإسلام (1969) دار الكتاب العربي ط5- ج2- ص.115 ،والزيات أحمد حسن ، تاريخ الأدب العربي ص 416، وشوقي ضيف ، المدارس النحوية ص 245 وما بعدها ، و عبده الراجحي ،دروس في المذاهب النحوية ، ص 159.

7- ينظر : شوقي ضيف ، المدارس النحوية ص 245 وما بعدها ، و عبده الراجحي ،دروس في المذاهب النحوية ، ص 159.

8- هو محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الحسن المعروف بابن كيسان ،منعلماء بغداد، أخذ عن المبرد وثعلب. من كتبهأيضا : المهذب في النحو" و"غريب الحديث" و"معاني القرآن" و "المختار في علل النحو" . توفي سنة(299هـ): ينظر الفهرست ، ص 369 وما بعدها. ينظر: شرح الكافية وكذا شرح الشافية.

9- ينظر شرح الكافية وشرح الشافية.

10- الدكتور محمد قاسم أستاذ اللغة العربية في الجامعة اللبنانية.

11- التراثالعربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد 64 - السنة 16 - تموز" يوليو" 1996 - صفر 1417.

المصادر والمراجع

1. الأفغاني سعيد، (د ت). من تاريخ النَّحْو، دار الفكر، بيروت، لبنان.
2. الإستراباذي رضي الدين 1982م، شرح شافية ابن الحاجب. تحقيق محمد نور حسن وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت. لبنان.
3. الإستراباذي رضي الدين 1998م، شرح كافية ابن الحاجب. تحقيق د: إميل يعقوب. دار الكتب العلمية بيروت. لبنان.
4. البغدادي، 1982م. شرح شواهد الشافية. تحقيق محمد نور حسن وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت. لبنان.
5. الأصفهانيّ، أبو الفرج، 1992م. كتاب الأغاني، الهيئة المِصْرِيَّة العَامَّة للكتاب، مصر.
6. أمين، أحمد (1969). ظهر الإسلام. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان.
7. ابن الأنباري عبد الرحمن بن محمد 1997م. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين. تحقيق حسن حمد، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
8. الحنبلي (د ت) شذرات الذهب في أخبار من ذهب. تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة بيروت. لبنان.
9. ابن خلكان 1972م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق د: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت. لبنان.
10. الزبيدي أبو بكر ،1954م. طبقات النحويين واللغويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة مصر.
11. الزيات أحمد حسن (د ت). تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة بيروت.
12. السيوطي 1979م. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر بيروت. لبنان.
13. شوقي ضيف (د .ت). المدارس النحوية، ط4، دار المعارف مصر.
14. طلال علامة 1992م. نشأة النحو العربي، دار الفكر اللبناني. بيروت. لبنان.
15. عبد العالي سالم مكرم، 1993م. الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.

16. عبده الراجحي، 1980م. دروس في المذاهب النحوية، دار النهضة العربية.
17. الفيروزبادي، (د ت) البلغة في تاريخ أئمة اللغة. تحقيق محمد المصري، مطبعة جامعة دمشق سوريا.
18. ابن قنفد 1982م. كتاب الوفيات تحقيق عادل نويهض. مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة، بيروت لبنان.
19. الكرمباني، 1311هـ. مجموعة الشافية من علمي الصرف والخط (متن الشافية لابن الحاجب، شرحها للجاربردي، حاشية ابن جماعة، حاشية الحسين الرومي، شرح نقره كار، شرح زكرياء الأنصاري، منظومة الشافية وشرحها)، دار الطباعة العامة، استانبول.
20. قاسم محمد. 1996م. الدّرسُ النحوي في بغداد أم مدرسَة بغداد النحويّة. مجلة التراثالعربي – مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد 64 السنة 16 ص69.
21. محمود حسني محمود، (د ت). المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي، دار عمار،الأردن.
22. المخزومي مهدي، 1986م. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة، ط3. دار الرائد العربي، بيروت، لبنان.
23. ابن النديم (د .ت). الفهرست تحقيق مصطفى شويمي، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.
24. ابن قتيبة، 1964م. الشعر والشعراء. بيروت .لبنان.
25. النيسابوري محمّد بن عبد الله الحاكم، 1990. المستدرك على الصّحيحين، ط01 تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ج2، رقم (3643).
26. ياقوت الحموي (د ت). معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.